

من أرشيف محاضرات ملتقيات الفكر الإسلامي:

المنطلقات الفكرية لأسلمة العلوم الإنسانية

الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف

الأستاذ بجامعة بغداد وعضو المجمع العلمي العراقي

إعداد: آسيا دواس

رئيسة مكتب إحياء التراث الإسلامي - وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

ملخص: هذه المحاضرة عنوانها "المنطلقات الفكرية لأسلمة العلوم الإنسانية" وهي منسوبة للأستاذ الدكتور بشار عواد معروف، الأستاذ بجامعة بغداد، وعضو المجمع العلمي العراقي، وقد شارك بها في ملتقى الفكر الإسلامي في طبعته العشرين التي عقدت بولاية سطيف: من 27 ذي الحجة 1406 إلى 05 محرم 1407 هـ، 02 إلى 09 سبتمبر 1986 م.

وتجدر الإشارة أيضا إلى المحاضرة التي قدمها أحمد عروة، في نفس الموضوع بعنوان: "آفاق إسلامية لأسلمة العلوم الإنسانية".

ومن الدراسات المقدمة أيضا في ذات الملتقى:

- "أسلمة المعرفة" إسماعيل راجي الفاروقي - أمريكا.

- "في إطار أسلمة العلوم الإنسانية نحو منهجية إسلامية في الفكر والبحث العلمي" عبد الرزاق قسوم - الجزائر.

كلمات مفتاحية: (بشار عواد معروف، ملتقى الفكر الإسلامي، أسلمة العلوم).

Abstract: This lecture, titled "Intellectual Foundations for the Islamization of the Humanities," is attributed to Professor Dr. Bashar Awad Maarouf, a professor at the University of Baghdad and a member of the Iraqi Academy of Sciences. He presented it at the 20th Islamic Thought

Forum, held in Setif, Algeria, from 27 Dhu al-Hijjah 1406 AH to 5 Muharram 1407 AH (September 2-9, 1986 CE).

It is also worth mentioning the lecture given by Ahmed Urwa on the same topic, titled "Islamic Perspectives on the Islamization of the Humanities."

Other studies presented at the same forum included:

"Islamization of Knowledge" by Ismail Raji al-Faruqi (USA)

"Within the Framework of the Islamization of the Humanities: Towards an Islamic Methodology in Thought and Scientific Research" by Abdul-Razzaq Qassoum (Algeria).

Keywords: Bashar Awad Maarouf, Islamic Thought Forum, Islamization of Sciences.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا، وأتم علينا نعمته، ورضي لنا الإسلام ديناً، وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد الأُمِّي إمام المتقين وخاتم النبيين، ورضوان الله تعالى على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، ذلك الفوز العظيم.

أما بعد:

فإن العلوم الإنسانية في كل مجتمع إنما تسعى إلى بناء إنسان سويّ نافع لمجتمعه، مؤمن بالقيم الفاضلة النبيلة، مسلح بالعلم الصحيح المهدّب للنفس البشرية.

وقد رسّخ الإسلام جملة من المبادئ التربوية المؤدية إلى خلق مواطن مؤمن تقي مستقيم صبور رحيم متسامح بار، يأمر بالعدل والإحسان، ويسعى إلى إحقاق الحق وإشاعة المعروف وإماتة المنكر، ليقوم بدوره المطلوب في هذه الحياة، على وفق الأسس الإسلامية المشيَّدة على صروح الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، وبالتعاون، وتقديس الحرية، والأخذ بمبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، وأنّ هذا الدين الحنيف إنما جاء لهداية الإنسان وإسعاده، وهو مصدر خير ودعوة للصلاح والتأخي، بما يقوي آصرة التعاون والتضامن في المجتمع الإنساني ويعيد الإنسانية إلى تكوينها الفطري الأول لرعاية بعضها رَحْم بعض آخر، قال تعالى:

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيباً) [النساء:1].

وبني كل ذلك على ترابط عضوي بين العلم والعمل؛ وهو العلم النافع المؤدي إلى العمل الصالح.

ودعا الإسلام الناس كافة إلى إصلاح نفوسهم بتقوى الله من أجل صلاح حالهم في الدنيا والآخرة، والسمو بها على الرذائل، وتربية جيل متماسك خير، يصبح مثلاً يُقتدى به على تعاقب الأزمان ومختلف البيئات.

وقد تحقق كل ذلك على أكمل وجه في عصر الأسوة الحسنة، في الجيل المثالي الأول الذي شهد شروق شمس الإسلام الوضّاءة، فكان المجتمع الفاضل على عهد رسول الله ﷺ، نتيجة للتعاليم النبوية والتربية المحمدية لأولئك الناس الذين نشأوا وترعرعوا في أحضان النبوة. فتحقق في هذه الحقبة ما لم يتحقق للإنسانية من قبل عبر عصورها الطويلة، وأصبح تاريخها المثل الأعلى لكل مسلم على مرّ العصور وتعاقب الدهور؛ بل كان هذا العصر تاريخاً للمجتمع البشري كلّ، وتاريخاً للمجتمع الحضاري وتاريخاً لنظام الحكم المثالي.

وبعد مسيرة أربعة عشر قرناً مضت على عصر الأسوة الحسنة، وما كان في هذه المدة من إنجازات رائعة في كل مجالات الحياة، وما حدث فيها من سلبيات، سعت إلى تحويل الأمة عن مسارها الصحيح عن طريق تشويه مقاصد دينها والنيل من رموزها، يأتي عقد هذا الملتقى الفكري الإسلامي العتيد، ليناقد موضوعاً من أخطر الموضوعات في عصرنا هو "الإسلام والعلوم الإنسانية" التي تتناول إعادة بناء الإنسان سيّد العالم وأشرف المخلوقات وأفضلها وفق المذهبية الإسلامية⁽¹⁾.

وتأتي أهمية هذا الملتقى وخطورته، من أنّ المذهبية الإسلامية نفسها تتعرض إلى حملة ظالمة من داخل العالم الإسلامي وخارجه؛ تهدف إلى تشويهها

(1) هذا المصطلح ابتدأه صديقنا الدكتور محسن عبد الحميد في كتابه "المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري" الذي نشرته "مجلة الأمة" ضمن سلسلتها، ويريد به: كليات الإسلام وبيان مواقفه التفصيلية في شؤون الكون وخالقه ذاتاً وصفة، والنبوة واليوم الآخر والإنسان، (ص 20).

وحرفها عن مسارها القيم وإدخال الضلالات والريب في نفوس المسلمين في مقاصدها النبيلة.

إنّ الصراع الفكري بين الإسلام ومناوئيه يمثل أخطر التيارات المعاصرة التي تواجه المسلمين في عصرنا هذا؛ إذ لم يعد خافيا على أحد ما يتعرض له الإسلام من انقضا على وتريص من أعدائه التقليديين وبعض أذعيائه المتسترين به. وأزعم أن ما يتعرض له الإسلام من حرب شعواء من أعدائه التقليديين أقل خطرا مما يصيبه ويصيب بنية مجتمعه من بعض أذعيائه المتلبسين به؛ فذاك عداء واضح بين نعرفه ونذكر أخطاره بطول معاناتنا له، ولكن الصعوبة والخطورة يكمنان في التريص به ممن يدعون أنهم من أهله الحريصين عليه، ومثل هؤلاء قد ينخدع بهم المسلم البسيط من غير ريبة بهم وبمقاصدهم الخبيثة. ويزداد هذا الخطر فيبلغ أشده عند كثير من الشباب من ذوي الثقافة القشرية وقلة المعرفة الإسلامية، وهم يركنون إلى ما يسمعون أو يقرأون من غير نقد أو عرض على الأصول الإسلامية الكلية التي يفتقدون إلى معرفة الكثير منها.

إنّ موجة العنف عند بعض الشباب المسلم اليوم هي إحدى مظاهر ما ذكرنا، حتى بلغ الأمر ببعض المتحمسين منهم إلى تكفير المجتمع الإسلامي وإخراجه من دائرة الإسلام، وهم بهذا العنف يريدون إقامته مرة أخرى. وغاب عن أذهانهم أن دولة الإسلام الأولى التي أقامها رسول الله ﷺ، لم يقمها بانقلاب عسكري فوق مفروض على الناس، وإنما بالتغيير الاجتماعي الذي أفرز الدولة الإسلامية المثالية⁽¹⁾. كما غاب عن أذهانهم قوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) [النحل: 125] وغيرها من الآيات والأحاديث الدالة على الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والحوار وإتباع السبيل السلمية ونبتد العنف

(1) انظر كتاب الأستاذ المودودي: "نحو ثورة سلمية".

والابتعاد عنه. هذا مع العلم أنّ الأمة اليوم قد تكون تراجعت في بعض دينها لكنها لم تخرج عنه بعد، وهي في حالة مجتمع إسلامي في مسيرة تطوره.

وهذا كلّ يشير إلى وجود تضادّ ما بين الفهم والعنف؛ لأنّ الإنسان إنما يستخدم العنف حينما يعجز عن حلّ مشاكله باستخدام مداركه العقلية⁽¹⁾.

وإذا تركنا موجة العنف جانبا -وهي عند القلّة القليلة من الشباب بحمد الله- فإننا نجد من جانب آخر بعض شباب متحمس للعمل الإسلامي من غير استيعاب كامل للمبادئ الإسلامية الأساسية التي لا ينبغي التفريط بها على أيّة حال.

ولعلّ التقصير في هذا إنّما يقع على كثير من الكتّاب الإسلاميين الذين أهملوا الكليات الأساسية -لا عن قصد في معظم الأحيان، بل باعتبارها مسلمات معروفة بالضرورة- واتجهوا إلى الكتابة في كثير من الأحيان في الفروع والأمور الجزئية التي لا يؤدي الاختلاف فيها إلى ضرر كبير.

إنّ انتشار أمثال هذه الدراسات في "الجزئيات" جعل بعض الشباب العاملين في الحقل الإسلامي لا يرى فيها طريقا هاديا لعمله أو معينا له في مسعاها؛ فترك العلم للعمل، وارتضى أن يعمل من غير علم وإدراك واضح لأساسيات عمله. وفي هذا خطر كبير لأنّه عمل بجهل، فمهما يكن العمل نشطا دؤوبا فإنّه لا يؤتي ثماره المطلوبة ولا يحقق غاياته المرجوة من غير علم وفهم صحيحين، وهما وحدهما اللذان يقودان إلى العمل الصحيح النافع، فضلا عمّا يؤدّي إليه هذا الجهل من مخاطر في الوقوع في المزالق والانجراف في التيارات الهدّامة في بعض الأحيان عن غير معرفة وقصد.

أمّا بعض الذين قلّدوا أصحاب "الجزئيات" من غير أن تكون لهم خلفية إسلامية جيّدة في أساسيات الإسلام، فقد أصبحوا أدوات صمّاء لتنفيذ آراء الغير

(1) انظر: خالص جلي: "في النقد الذاتي"، ص 276 فما بعد، ط 2، بيروت 1984.

ودخلوا في متاهات الخلافات الفرعية من غير عناية بالكليات الأساسية التي يفترض أنهم يعملون في المحصلة النهائية من أجلها.

وفي كل هذا الذي ألمحنا إليه يكمن خطر عظيم يواجه المجتمعات الإسلامية حينما تنتشر بعض الكتابات الهدامة لأسس العقيدة الإسلامية، وتجد لها طريقا إلى عقول بعض المتحمسين للعمل الإسلامي من غير أن تأخذ طريقها الطبيعي عندهم من هضم وتمثيل وإدراك واعٍ لمخاطرها وآثارها العميقة على القضية التي يعملون من أجلها.

وهكذا أصبحنا نشعر أنّ كثيرا من الدراسات الإنسانية الإسلامية في عصرنا الراهن لم تعد تعنى بالأهداف الأساسية التي ينبغي أن تتمخض عنها، فسُلم الأولويات في كثير منها قد وضع رأسا على عقب، بمعنى أنّ الدراسات الجزئية الهامشية هي التي تسيطر على الساحة الفكرية الإسلامية، أما دراسة الأصول، ومنها أصول المذهبية الإسلامية، فإنّ العناية بها قليلة لا تتناسب وخطورتها في بناء الإنسان المسلم الواعي.

وقد أدرك المفكر الإسلامي العلامة السيد أبو الحسن الندوي، خطورة مثل هذا الاتجاه في مقدمته لكتاب الشيخ محمد منظور نعماني الأخير في ملاحظتين رئيسيتين:

أولاهما: إنه لم يعد هناك أي معيار للنقد ولم يعد هناك أي معيار موضوعي للمدح أو الذم في كثير من الدوائر الإسلامية التي تضم أهل القرآن والسنة وأسوة السلف الصالح وأصحاب العقائد الصحيحة والمسلك الصحيح، ففي هذه الدوائر يكفي لأن يكون القائد محبوبا أن ينادي فقط بإقامة حكومة حرّة باسم الإسلام أو الهاتف ضد أية قوّة غربية أو خلق بعض المشكلات لها حتى يُغتفر له كل شيء... ولو كان هذا الشيء خروجه على أصول الإسلام.

ثانئهما: أن أهمية العقيدة قد تدهورت إلى حدّ خطير لدى جيلنا المثقف المتعلم وهذا أمر جدّ خطير يدعو للقلق ويستلزم إعمال الفكر، بل أهم الحدود الفاصلة بين دعوات الأنبياء وغير الأنبياء من الأدعياء، وبين أهداف وأعمال الأنبياء وأعمال غيرهم، فهي عقيدة لا تقبل أي هدنة أو مهادنة، ولا تقبل أي تسويق أو مساومة، فمعيار الرفض والقبول، ومعيار الإعجاب والغض، وشرط الوصال والقطيعة يتمثل فقط -عند المسلم- في تلك العقيدة، وفي هذا الدين هو -رغم ضعف المسلمين- قائم وثابت في شكله الأصلي طالما بقيت هذه العقيدة صلبة مستقيمة وطالما تمسك بها أهلها وأخذتهم الحميّة والغيرة عليها إن مسّها أحدٌ بضر، وطالما لم يهن ولم يضعف مفسّرو الدين وشارحوه والمحافظون عليه أمام أي جبروت أو طاغوت أو أمام أيّة إمبراطورية مهما وصلت قوّتها، وطالما لم يسمحوا لأحد أن يمسّ هذه العقيدة من قريب أو بعيد، وطالما رأوا عدم جواز السكوت على أيّة عقيدة خاطئة أو دعوة تشوبها شائبة من خطأ أو تحريف مهما كان الأمر يمسّ المصالح الدنيوية للمسلمين، ومهما كان الأمر يحمل التلويح بالابتعاد عن تفرقة المسلمين أو البعد عن إيجاد اختلاف بينهم. فالعقيدة الصحيحة هي الأساس وما عداها باطل باطل ... والحقيقة أن التعاليم الحقيقية للإسلام والعقيدة الصحيحة للإسلام هي ذلك النهر الذي يمضي لا يغيّر مساره أبداً، ولا يمكن أبداً أن تتداخل فيه مياه مجارٍ أخرى من أي نوع، فالقوى السياسية والثورات المؤقتة وقيام الحكومات وسقوطها والدعوات والحركات الأخرى ما هي إلا أمواج تأتي وتمضي، فإذا ما كان النهر في مساره الصحيح، وإذا ما كان ماؤه ينساب دائماً، فلا خطر ولا خوف.

ولكن، إذا كان في العقيدة فساد، فكأنّ نهر الدين قد غيّر مساره ومجراه، وكأنّ مياهه الصافية قد نضبت، وحلّ محلها ماء أسن قذر... ومن هنا فإنّ أية حركة أو دعوة لا يمكن أن تقدم وعودا تقبل مع فساد عقيدتها ومع ضلال وبطلان ما تدعو إليه من الوصول ببلد ما إلى التقدّم والرقى، كما لا يمكنها أن تحقق لأيّ مجتمع أي إصلاح ولو جزئي، ولا يمكن أن تبعد عنه أي فساد أو خراب ... تلك هي الحقيقة التي

يكمن بداخلها سرّ بقاء الأمة وسرّ الحفاظ على الدين، وتلك هي الحقيقة التي تفرض على علماء عصرنا ودعاة ديننا والمحافظين على شريعتنا وعلى سنّة نبينا مواجهة الصعوبات وتحملها ومواجهة المتاعب التي تعترضهم والصبر عليها⁽¹⁾ - انتهى - وهكذا يتضح أنّ الاختلاف في جوهر العقيدة الإسلامية لا يمكن قبوله البتّة لما يسببه من هدم كامل لمرتكزات الإسلام الأساسية، في حين أنّ الاختلاف في الاجتهاد وفق الأصول الكلية يمثل الصحوّة الدائمة للعمل الإسلامي، فإمكانية الاختلاف والبحث فيه واردة، والحوار فيه يؤدي إلى النمو والبناء.

إنّ أبرز المنطلقات الفكرية لهذا الملتقى العتيد، ينبغي أن تتمركز في الحفاظ على أصول العقيدة الإسلامية، والتأسي بالتربية النبوية، واتخاذها مثلا وأسوة في جميع الدراسات الإنسانية.

إنّني لا أفهم مطلقا كيف نبني مجتمعا إسلاميا فاضلا، ومئات ألوف من المجلدات تنشر بين المسلمين لكتاب يدعون الإسلام وفيها الطعن بصحة القرآن، وهدم للتوحيد المطلق، وشكّ بكمال الدولة على عهد رسول الله ﷺ، وكلام يدلّ على عدم الاعتراف بخاتمية النبوة، وطعن في التربية المحمدية وتكفير لأصحاب رسول الله ﷺ، ولا سيما الخلفاء الثلاثة الراشدين: أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن هنا يتعيّن على الإخوة العلماء المجتمعين في هذا الملتقى الفكري الإسلامي أن يتخذوا كل الوسائل الكفيلة بالتصدي لمثل هذه المفاسد والطعون، وأن يقوموا بتوعية المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من الأخطار الهائلة التي تهدّد

(1) ص (12-13)، القاهرة 1986، وأعاد هذا الكلام في كتابه "صورتان متضادتان" تحت عنوان: "أهمية العقيدة في الإسلام والنتائج الخطيرة لصرف النظر عنها"، ص (104-106) من طبعة دار الصحوّة بالقاهرة.

الإسلام من جرّاء انتشار مثل هذه الأفكار؛ سواء أكانت في كتب مؤلفة في العصور القديمة أم الحديثة، وذلك عن طريق وضع الدراسات العلمية التي تنقض تلك الأفكار وتبين بطلانها وفسادها وإخراج القائلين بها من دائرة الإسلام، والطلب من الحكومات والهيئات الإسلامية منع تداول مثل هذه الكتب الفاسدة. وأرى من الواجب عليّ أن أعرض للملتقى الفكري خمسة منطلقات ينبغي الانتباه إليها وتكثيف الدراسات فيها ردا على الطاعنين وتوضيحا وتعليلما لجمهور المسلمين، وهي:

أولا: كمال كتاب الله وحفظه من النقص والتحريف:

القرآن الكريم كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أخرج الله سبحانه به الناس من الكفر والعمى إلى الضياء والهدى، وهو أصل الشريعة الإسلامية وعمودها، من جمعه في قلبه فقد جمع النبوة بين جنبه كما يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وقد تولى الله سبحانه حفظه بنفسه ولم يكل ذلك إلى أحد من خلقه، فقال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:1].

فظهر مصداق ذلك مع طول المدة وامتداد الأيام وتوالي الشهور وتعاقب السنين وانتشار أهل الإسلام واتساع رقعته⁽¹⁾.

وتنتشر اليوم الكتب التي تدّعي -كذبا مزورا- تحريف القرآن، والقول بنقصه، وظهر من يقول ممن يدّعون الإسلام "إنّ تهمة التحريف التي يوجهها المسلمون إلى اليهود والنصارى إنّما تثبت على الصحابة".

(1) انظر مقدمة "تهذيب الكمال"، 146/1 (بتحقيقي).

ويقول في موضع آخر: "لقد كان سهلا عليهم (يعني الصحابة الكرام)، أن يُخرجوا هذه الآيات من القرآن ويتناولوا الكتاب السماوي بالتحريف، ويسدلوا الستار على القرآن ويغيّبوه عن أعين العالمين".

وقد أعيد في الأيام الأخيرة طبع كتاب "فضل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب" للعلامة نوري الطبرسي، بعشرات الألوف من النسخ⁽¹⁾. ويتساءل العلامة أبو الحسن الندوي، بعد إيراد مثل هذه الأباطيل من مصادرها الموثقة في كتابه النافع، "صورتان متضادتان":

«في مثل هذا الوضع كيف يمكن للمسلمين أن يعرضوا -مع وجود هذه العقيدة- على العالم دعوة دينهم، وكيف يمكن أن يعتمدوا على القرآن كشهادة لصدقهم وصحة دعوتهم وأفضلية تعاليم دينهم؟»⁽²⁾

ثانيا: التوحيد المطلق

التوحيد المطلق من أصول الإسلام، وهو الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، وحقيقته: اعتقاد عدم الشريك في الألوهية وخواصها⁽³⁾.

وتطبع اليوم مئات ألوف من النسخ من كتاب يجعل مؤلفه لأئمتيه مقام الألوهية ومشاركة الله -جلّ شأنه- في الربوبية حينما يجعل ولايتهم تكوينية تخضع لها جميع ذرات الكون، يقول ما نصّه: «إنّ للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون. وإنّ من ضرورات

(1) انظر تفاصيل ذلك في كتاب العلامة السيد أبو الحسن الندوي: "صورتان متضادتان"، (ص 70-77)، نشر دار الصحوة، القاهرة 1985.

(2) "صورتان متضادتان"، ص 77.

(3) التفتازاني، "المقاصد"، 47/2، (طبعة الأستانة).

مذهبنا أنّ لأمتنا مقاما لا يبلغه مَلَكٌ مقرب ولا نبيّ مرسل. وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإنّ الرسول الأعظم ﷺ والأئمة عليهم السلام، كانوا قبل هذا العالم أنوارا فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله... وقد ورد عنهم عليهم السلام: إنّ لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل⁽¹⁾.

فأين التوحيد المطلق من هذه الضلالات؟

ثالثا: عقيدة ختم النبوة

إنّ من مبادئ الإسلام -بعد الإيمان بالتوحيد والبعث بعد الموت- أنّ محمدا ﷺ قد ختم الله به النبوة، وأنّ لا نبي بعده، وأنّ لا وحي بعده، ولا إلهام يكون حجّة شرعية، وهذه العقيدة هي المعروفة بعقيدة ختم النبوة في الإسلام. وقد اعتبرتها الأمة الإسلامية من عصر النبي ﷺ إلى يومنا هذا جزءا من الإيمان من غير أدنى خلاف، والعشرات من الآيات القرآنية والمئات من الأحاديث النبوية عليها شاهدة وهي مسألة قطعية ومسلّمة⁽²⁾.

ويشير العلامة أبو الحسن الندوي إلى أنّ النبي ﷺ، "بذاته مركز الهداية ومصدر القيادة ومحور العلاقة القلبية والانقياد الفكري للأمة، فتعتقد بكونه خاتم الرسل ومنير السبل وقدوة الكل، ولا تسمح لأحد بعده بالمشاركة في النبوة والتشريع المطلق، ولا تعتقد في أحد آخر العصمة وتعتبره مورد الوحي. إنّ وحدة هذه الأمة

(1) الحكومة الإسلامية، ص 52، طبعة القاهرة 1979، وطبعة طهران، مكتبة بزرگ الإسلامية، وراجع تفاصيل أوسع في كتاب العلامة الندوي، "صورتان متضادتان"، ص 77 فما بعد.

(2) انظر التفاصيل في كتاب "موقف الأمة الإسلامية من القاديانية"، ترجمة الدكتور عبدالرزاق اسكندر، باكستان.

ومركزها واجتماع شملها وابتعادها عن الفرقة الاعتقادية والعلمية وبقاء طاقاتها الداخلية وقوتها الإيمانية، يرتبط كل ذلك بعقيدة ختم النبوة إلى حد كبير، وإن عقيدة المشاركة في النبوة تضاد عقيدة "ختم النبوة"⁽¹⁾.

وتنتشر مئات الكتب التي تكوّن مئات ألوف من المجلدات تشير صراحة أنّ بشرا من البشر هم من المعصومين كالنبي ﷺ وتلزم طاعتهم، وأنّ منزلتهم تساوي منزلة رسول الله ﷺ وتفوق منزلة الأنبياء الآخرين، وأنّ طاعتهم واجبة كطاعة الرسل، وأنّ لهم الخيار في تحليل الأشياء وتحريمها... إلخ⁽²⁾. وهذه كلها تعارض "عقيدة ختم النبوة" وترادف: "المشاركة في النبوة"⁽³⁾، فضلا عن القول الصريح بأنّ الوحي لم ينقطع بوفاة سيدنا محمد ﷺ، وأنّه ظلّ ينزل على سيدتنا فاطمة مدّة (75 يوما) وأنّ الإمام علي بن أبي طالب كان كاتباً لوحى بها كما كان كاتباً لوحي الرسول ﷺ. وعشرات من هذه الضلالات الكفرية تزخر بها الكتب التي يُصرف على نشرها ملايين الدولارات باسم الدعوة إلى الإسلام؛ فليتدبر المسلمون أمرهم وينتهوا إلى ما يحاك لهم.

(1) انظر كتابه: "النبوة والأنبياء في ضوء القرآن"، ص (221-261)، وكتابه الآخر: "صورتان متضادتان"، ص (18 و 77-84).

(2) انظر تفاصيل أوسع في "أصول الكافي" للكليني، ص (103، 259)، و"شرح أصول الكافي": 229/2، وكتاب الندوي، "صورتان": ص 78 فما بعدها.

(3) "صورتان متضادتان": ص 18 هامش 2.

رابعا: كمال الدولة على عهد رسول الله ﷺ

أقام رسول الله ﷺ دولة الإسلام المثالية في المدينة المنورة، فكانت أروع ما شهد التاريخ من نماذج الدول، وأصبحت على مدى التاريخ مَثَل المسلمين الخالد أبد الدهر يستضيء بنورها كل مسلم عامل على رفعة هذا الدين.

ومما يأسف عليه أن نجد في هذه الأيام من يزعم أن رسول الله ﷺ، لم ينجح في إقامة نظام الحكم الإسلامي كما ينبغي، كما لم ينجح أحد من بعده بتطبيق الإسلام وإقامة الدولة الإسلامية؛ بل أن الإنصاف الإلهي لم يتحقق إلى يومنا هذا.

وقد انتشرت مثل هذه الأفكار بين المسلمين وتنهت "الجماعة الإسلامية" في باكستان إليها، فنشرت مقالا مفصلا باللغة الانكليزية في مجلة (امياكت انترناشنال)⁽¹⁾ وآخر باللغة الأوردية في مجلة (ايشيا)⁽²⁾ بعنوان: "هذا نفي للإسلام وتاريخ الإسلام"؛ تصدت فيهما لهذه التصريحات والمقولات الخطيرة وردّت عليهما.

ولكن مثل هذه الضلالات لم تجد أكثر من تلك الردود الوقتية، وظلت تحتل منزلة في عقول بعض المسلمين من غير أن تجد من يردّ عليها ردّا مستمرا يحذّر به المخدوعين من الاستمرار في تصديق هذه الترهات وأشباهها.

(1) العدد الصادر في لندن في 1984/8/24.

(2) العدد الصادر في لاهور في 29 ذي الحجة 1404هـ الموافق 23 أيلول/ سبتمبر 1984.

خامسا: التربية النبوية

إنّ ما تقتضيه طبيعة الرسالات السماوية ودراسة تاريخ حملتها هو أن تتحقق معجزة صنع الإنسان كأنّه قد ولد من جديد، ويكون لدعوتهم وصحبته من التأثير وقلب طبائع الأشياء ما لو ذكر بإزائه "حجر الفلاسفة" الأسطوري أو "الكيمياء" دلّ على الجهل بالحقائق التاريخية، واعتُبر إهانة للنبوّة والأنبياء.

ولقد بعث الله سبحانه محمّدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه، وأكمل لأمته الدّين، وأتمّ عليهم النعمة، وخصّه بصحابة أوفياء رحماء أتقياء؛ هانت عليهم نفوسهم وأموالهم وعشيرتهم، واستطابوا المرات والمكاره في سبيل الدعوة إلى الله، وأفضى يقينها إلى قلوبهم، فأثروا الأجل على العاجل، والحرص على دعوة النّاس وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

وكان كل ذلك من آثار التربية النبوية المحمدية التي أنتجت مجتمعا مثاليا وصفه الله سبحانه في محكم كتابه العزيز بقوله: (محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعا سجّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطّاه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار" [الفتح:29].

وصار الصحابة خيار المؤمنين ومثلهم وأسوتهم حين تخرجوا في المدرسة النبوية المحمدية وعاشوا في أكنافها وتمثلوا قيمها ومعانيها السامية. وقد وثّقهم الله سبحانه من فوق سبع سماوات فقال في محكم كتابه العزيز:

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) [التوبة:100].

لا توجد صورة في المصور الإنساني العالمي الواسع؛ بل في الكون كله، أجمل وأروع وأشرف من هذه النماذج الإنسانية والأنماط البشرية باستثناء الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم، لذلك كانوا مصابيح خالدة أبد الدهر تضيء لكل مسلم يتلمس طريق الإيمان والخير ويعمل على تواصلهما في ربط حاضره وسلوكه بتلك الأسوة الخالدة.

ومن هنا أصبح من المتعين على المسلمين النظر إلى هذا الجيل المثالي الذي خرّجته المدرسة النبوية مثالا يُحتذى، بكل قداسة وتقدير وتبجيل واحترام، ووجب عليهم تمثّل هذه الرموز الخوالد في سلوكهم وتصرفاتهم، وعدم السماح لأي أحد مهما بلغت منزلته، أن ينتقص من أقدارهم بأي شكل من الأشكال، فذاك امتحان للتربية النبوية المحمدية وهدم لصروح الإسلام وقيمه.

هذه الصورة العظيمة الرائعة تقابلها صورة معكوسة تتبناها جماعة تدعي الانتماء إلى الإسلام، فهدم المجهودات العظيمة التي قام بها نبي الإسلام ﷺ في مجال التربية والتوجيه، وثبتت له -عبر مئات الكتب التي تنشرها- إخفاقا لم يواجهه أيّ مصلح أو مرب خبير مخلص لم يكن مأمورا من الله ولا مؤيّدا من السماء ولا مورد وحي ولطف إلهي ... إنّها تقدمهم في صورة كالحة سوداء مظلمة تتمثل في جحود النعمة، والجفاء، والغدر، وإخفاء الحق، وعبادة النفس، وحب الجاه، وتحريف التعاليم القرآنية والسنة النبوية؛ لتحقيق أغراضها الخسيسة ... إنّها ترى أنّ المجهودات الجبّارة التي بذلها محمد ﷺ ثلاثة وعشرون عاما، لم تنتج إلّا ثلاثة أو أربعة أشخاص ظلوا متمسكين بالإسلام إلى ما بعد وفاة النبي ﷺ. أمّا غيرهم فقد ارتدوا عن دين الله (والعياذ بالله)، واثبتوا أنّ التربية المحمدية أخفقت في مهمتها⁽¹⁾.

(1) الندوي، "صورتان متضادتان"، ص 53، 54. وفيه تفاصيل ونصوص يراجعها من يشاء.

فمن أين يستمدّ المسلم بعد كل هذا مصادر قوته الإيمانية وعاطفته الدينية؟ ومن أي شعلة يقتبس ليوقد بها مجامر قلبه؟ لا ريب في أنّ خمود سراج السيرة النبوية وسير الصحابة الكرام -لا سمح الله- سيؤدي إلى فقدان هذه الأمة قوتها وميزتها وتأثيرها، فتصبح جثة هامدة تحملها الحياة على أكتافها.

المذهبية الإسلامية وأسلمة العلوم الإنسانية:

إنّ تطور العالم الراهن وسهولة المواصلات وسرعة انتقال الأفكار عبر أجهزة الإعلام المتنوعة جعل من الصعوبة -بل من المستحيل- السيطرة على تدفق الثقافات المتنوعة إلى عقول المسلمين. لذلك أصبح من الخطأ تجاهل هذه الأفكار؛ بل أصبح من المتعين تتبع أصولها، وبداءاتها الأولية، ومؤسسيها، وتطورها، وآثارها، ووجه الحق أو الباطل فيها، بدراسات تحليلية موضوعية بعيدة عن أسلوب الشتائم أو السخرية أو الهامشية.

إنّ العالم الإسلامي أحوج ما يكون اليوم إلى تتبّع العلوم الإنسانية الغربية: اجتماعية واقتصادية ونفسية وعقائدية وغيرها، والقيام بعملية تاريخية فاصلة لأسلمتها، وذلك عن طريق إيقاف تلك العلوم على أرجلها، وفحص مادتها المعرفية وتدقيقها بعد التحرر من الاتجاهات الإيديولوجية المادية التي ولّدت فيها الثغرات الكبيرة؛ ثم عرضها على الوحي الإلهي في إطار أصول فهمه وقواعده لا على التراث الفكري الإسلامي منطلقين من مبدأ أننا -إسلاميا- مسؤولون في الخضوع إلى الوحي الإلهي لا لفكر المسلمين المرتبط بمراحل تاريخية معينة⁽¹⁾.

وتأتي هنا المنطلقات الفكرية التي تعرضنا لها في الصفحات الماضية من هذا البحث، وآية ذلك أنّنا عندما نريد أن ندرس العلوم الإنسانية بميزان الإسلام، فلا بد

(1) انظر كتاب الدكتور محسن عبد الحميد: "أزمة المثقفين"، ص 121، (الرباط، 1405هـ).

لنا أن ننطلق من أسس عقيدية واضحة لا خلاف فيها، لأنّ اتباع الانحرافات العقيدية التي ظهرت في التاريخ والتي نقلت العصمة حتى إلى الفقيه في بعض الأحيان سيحول دون مشاركة أهل الخبرة في دراسة هذه العلوم والاجتهاد فيها، كما سيؤدي من غير شك إلى تقصير المدى في الاستفادة منها.

إنّ كثيرا من المفكرين الإسلاميين اليوم يوضحون ويؤكدون في كتبهم أنّنا لا نستطيع أن نقدّم إلى الغرب العلم الصرف -في مدى المنظور في عصرنا في الأقل- لأنّه بضاعتهم يردّ إليهم، ولكننا في الوقت نفسه نستطيع أن نغني حضارتهم ونشحنها بعظمة عقائدنا، وقيمنا وخصائص تراثنا الحضاري.

ولكن كيف السبيل إلى إقناع أهل الغرب في ذلك ونحن نشكّك حتى في الأصول المتفق عليها بالضرورة؟

وثابت أنّ فن عوامل انتشار الضلالات في المذهبية الإسلامية هو جهل كثير من المسلمين بلغة هذا الدين، اللّغة العربية، بسبب اضطرار من يجهل العربية إلى أخذ الإسلام من غير منابعه الصافية والاتكال في فهمه على غيره ممن قد يكيّد للإسلام وعقيدته لأغراض باطنية أو استعمارية تهدف إلى إفساد العقيدة الإسلامية، وتعمل في محصلتها النهائية على هدم الإسلام بالكلية.

ومن الخطأ العظيم، لا بل الجهل العميم، أن يعتقد مسلم أنّ اللّغة العربية هي لغة عنصر معين، إنّما هي لغة القرآن والسنة والتراث؛ لغة الإسلام المعبر عن جوانب حضارته المتكاملة، فلا سبيل إلى فهم الإسلام وضبطه إلّا بالتمكّن التام من العربية، لأنّ اللّغة العربية نفسها من الدّين، ومعرفتها فرض واجب، فإنّ فهم الكتابة والسنة فرض؛ ولا يفهمان إلّا بفهم اللّغة العربية، وما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب.

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله-: «فإنّ الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدّين متكلمين به، لم يكن سبيل إلى ضبط الدّين ومعرفته إلّا

بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين، وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين في معرفة دين الله وأقرب إلى إقامة شعائر الدين»⁽¹⁾.
إن اعتماد لغة واحدة عند أسلمة العلوم الإنسانية يؤدي إلى توحد أساليب تفكير المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ويزيد التفاهم بينهم ويسره ويعصمهم من الفرقة والتمزق.

وقد أثبتت الدراسات اللغوية والاجتماعية الحديثة، أن اللغة لها تأثير عظيم في تكوين العقل الإنساني وأسلوب تفكيره، وأن وحدة اللغة تؤدي إلى عادات وتقاليد وأخلاقيات مشتركة في كثير من النواحي، وهو أمر تنبّه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، قبل سبعمائة عام حينما قال: «اعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً، ويؤثر أيضاً في مشاهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشاهتهم تزيد العقل والدين والخلق»⁽²⁾.

وقال أيضاً: «اللسان تقارنه علوم أخرى: من العلوم والأخلاق، فإن العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله وفيما يكرهه»⁽³⁾.

وقال المفكر الإسلامي جمال الدين الأفغاني: «إن لكل دين لساناً، ولسان دين الإسلام العربية»⁽⁴⁾.

وإنما يتأتى حب المسلم اليوم للغة العربية، والتزامه بها، وحرصه عليها، وتعلّمه لها، وتلقينها أولاده منذ الصغر، وتنشئتهم عليها، من حبه لإسلامه وقرآنه وسنة رسوله ﷺ، باعتبارها اللغة الجامعة للمسلمين في كل مكان.

(1) "اقتضاء الصراط المستقيم"، (ص 162، 163)، بتحقيق محمد حامد الفقي-بيروت.

(2) نفسه: ص 207.

(3) نفسه: ص 163.

(4) "الأعمال الكاملة": ص 226-بيروت.

إنّ من أولى منطلقات أسلمة العلوم الإنسانية أن تعتمد اللغة العربية لغة لها، لا بل إنّ من الوفاء للإسلام وحضارته وسلامة عقيدته ودرء المفساد عنها والوفاء لوحدة الفكر والمصير بين المسلمين، أن يتّخذوها لغة الحضارة والحياة. ولنا مثل واضح في ماضيها المشرق الطويل، فقد كانت هذه اللغة الكريمة طوال عصور ازدهار الإسلام لغة الإنسانية المؤمنة ووعاء الحضارة؛ حملت بجدارة أوامر السماء إلى الأرض، وعبرت عن جوامع كلم النبي الأكرم ﷺ، واستوعبت تراث الفقه الإسلامي والفكر العقائدي والعلوم المتنوعة من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً، ومن أواسط آسيا إلى أواسط إفريقيا؛ جمعتهم على الهدى ودين الحق، وربطت بين قلوبهم، وجعلتهم أمة واحدة، تعبّد بها الله تعالى، وتقرأ بها كتابه الكريم وعلوم الإسلام.

المنطلقات الفكرية لأسلمة العلوم الإنسانية



صورة من الأرشيف

من اليمين: د. بشار عواد معروف، أ. مولود قاسم نايت بلقاسم، أ. عبد الوهاب حمودة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، العلامة محمد سالم ولد عدود